التلاقح العلمي بين حاضرتي بجاية وتلمسان في العصر الوسيط- قراءة تاريخية -

أ. عبد الجليل قريان*

أحسب أن التواصل العلمي بين مختلف الأقطار والمدن الإسلامية في العصر الوسيط شكل ظاهرة حيوية وفعالة في نقل عناصر الحمل الحضاري الثقافي والفكري بين مختلف المراكز العلمية، ولم تخرج المدن المغاربية عن هذه الظاهرة. وقد ساهم هذا التواصل والتفاعل الإيجابي للحركة العلمية في بروز حواضر علمية كان لها شأن كبير في تطوير البنى العلمية والمنهجية لمختلف العلوم. ومن أهم المدن التي ساهمت في امتداد هذه الحركة التواصلية في أقطار المغرب الإسلامي في العصر الوسيط مدينتا بجاية وتلمسان.

لعله من اللازم بداية الإشارة إلى أن مدينتي بجاية وتلمسان كانتا أهم حاضرتين في العصر الوسيط بالنسبة للمغرب الأوسط[1]، وقد امتد حضورهما العلمي إلى أواخر العصر الوسيط بنسب متفاوتة. وكانت حرارة حركة التفاعل العلمي بين المدينتين قائمة على امتداد هذه العصور أخذا وعطاء، واستطاعت هذه العلاقة أن تشارك بقوة في صياغة القواعد الأساسية لانصهار مجتمعي، وانسجام جغرافي وثقافي، ليس على المستوى الآني لفعل التواصل، ولكن على امتداد مساحة هذا التواصل في شقيه الزماني والمكاني.

من الضروري كذلك توضيح مصطلح التلاقح العلمي الذي نعنيه، فبالمقاربة للمعنى اللغوي[2] كما هو في قواميس اللغة استطعنا أن نحدد هذا المفهوم على أنه الأثر العلمي الذي يُسهم في بلورة مناخ علمي قائم، بتجديد بعض قواعده ورؤاه، أو تعديل منحاه موضوعا ومنهجا.

إن محاولة تفكيك عناصر معادلة التلاقح الثقافي والعلمي بين بجاية وتلمسان في العصر الوسيط يمكننا رصدها من خلال ثلاثة أدوار أساسية:

*- أستاذ مساعد ب في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة قالمة.

الدور الأول: المشيخة العلمية البجائية: هذه المرحلة يمكننا حصرها في المجال الزمني في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ق 14م.

1- معالم المشيخة البجائية: قبل الحديث عن آثار المشيخة العلمية البجائية في تلمسان من الضروري التذكير بالخلفية التاريخية العلمية التي تميزت بها بجاية وساهمت في إرساء قواعد هذه المشيخة، ويسَّرت اعتمادها لدى التلمسانيين.

يمكننا إبراز معالم هذه المشيخة البجائية عند التلمسانيين في عنصرين أساسيين:

أ- الرصيد العلمي (النقلي والعقلي) البجائي: لقد استطاعت بجاية وريثة القلعة أن تُكوِّن تراكما علميا متنوعا خلال القرون السابقة، ذلك أن القرن السادس الهجري كان متميزا بوجود مناخ علمي جذاب بعد أن أسس الناصر الحمادي ثم خليفته المنصور لمدينة تعج بالحركة العلمية والعمران[3]، وكانت بجاية في هذا العصر تعيش مرحلة علمية واقتصادية نشطة كانت محل تقدير وإعجاب المهتمين والمتابعين، فلقد وصف الإدريسي مدينة بجاية الحمادية بقوله:"ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران، والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والحرابي لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة"[4].

وتكفي إشارة ثانية لأحد أبرز علماء بجاية في القرن السادس الهجري وهو أبو علي حسين بن علي بن محمد المسيلي(ت 580هـ)[5] التي أوردها الغبريني في الكشف عما كانت عليه الحياة الثقافية في بجاية في هذا القرن من النمو والحركة إذ يقول:" أدركت ببجاية تسعين- وفي رواية سبعين- مفتيا ما منهم من يعرف الحسين بن علي المسيلي من يكون"، ويشير الغبريني على أن هذا القول كان تعليقا له عندما يشار إليه بالتفرد في العلم والتوحد في الفهم[6]، ثم قال:"وإذا كان من المفتين تسعون، فكم يكون من المحدثين، ومن النحاة، والأدباء، وغيرهم، ممن تقدم

عصرهم ممن لم يدركه، كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد"[7].

وقد أخذ النشاط العلمي لبجاية موقعه المتميز بعد أن صارت تابعة للموحدين الذين أدركوا نفاسة الموروث العلمي البجائي ورصانته، فاستخلصوا بعض علمائها إلى البلاط الموحدي في العاصمة مراكش لتولي مناصب علمية أساسية؛ فمن بجاية استُدعي الطبيب أبو إسحاق إبراهيم الداني لإدارة بيمارستان مراكش[8]؛ وكان أبو تميم ميمون بن جبارة بن خلفون البردوي الذي وُلي القضاء بجزيرة الأندلس وقضاء بجاية، استُقدم هو الآخر إلى مراكش من بجاية ليتولى قضاء مرسية فتوفي بتلمسان سنة 584ه[9]. كما استدعَى عبد المؤمن بن علي كذلك من بجاية أبا الفضل ابن محمد بن علي بن طاهر لكتابة سره في مدينة مراكش، وقد عقب الغبريني على المكانة العلمية لهذا الأخير بقوله:" وحاجة الخليفة له أكثر من حاجته"[10].

إن هذا التريف العلمي الذي حصل لبجاية في العهد الموحدي، ثم تَحَوُّلها إلى مدينة ثانوية بعدما كانت عاصمة سياسية وعلمية قد أفقد المدينة جانبا من الاهتمام التواصلي بينها وبين مختلف المدن الأندلسية، فقد أصبح مركز الرحلة أو الهجرة من الأندلس خاصة نحو مراكش بعدما كان إلى بجاية وغيرها، ورغم ذلك لم تفقد مدينة بجاية مركزها العلمي والثقافي، فثمة إشارات وافية تؤكد أن بجاية وفي بداية القرن السابع الهجري/ق 13م كانت من أهم المدن التي تتربع على مناهج راسخة ليس في العلوم النقلية فحسب ولكن في العلوم العقلية أيضا.

إن هذا المحيط الفكري والثقافي الذي تميزت به بجاية هيأها لأن تكون مقصد كبار الأطباء والصيادلة الذين حلوا بها في رحلاتهم العلمية؛ ففي جانب الصيدلة هناك إشارات تؤكد استمرارية البحث الصيدلي في بجاية اعتمادا على أعشاب جبالها، واستلهاما مما كان يجري من قبل في مدينة القلعة، ولاشك أن هذه الأبحاث قد أثارت انتباها خاصا لدى بعض علماء الصيدلة والنبات المرموقين، فلقد كانت مدينة بجاية من بين المدن الأساسية التي زارها الصيدلي الاشبيلي الكبير ابن الرومية احمد بن محمد بن خليل مفرج الأموي في رحلته العلمية[11] إلى بلاد المشرق والمغرب سنة 612هـ، واستمرت ثلاث سنين[12]، والتقى فيها جملة من أعلام بجاية وأكابرها[13]. كما كانت بجاية على الأرجح محل زيارة من قبل النباتي والصيدلي المالقي ابن البيطار[14] - تلميذ ابن الرومية - في رحلته العلمية سنة 617هـ التي جاب فيها كلاً من المغرب

والمشرق مقتفيا أثر أستاذه حيث كان يجتمع بأهل الاختصاص من علماء النبات المغاربة ويعاين النباتات الطبية[15]. ولاشك أن هذه الأبحاث كانت محل اهتمام خاص لدى الشريف الإدريسي- تلميذ ابن الرومية- الذي لاحظها ودونها في كتابه نزهة المشتاق، وربما كانت لها أثار حقيقية في مؤلفه حول الأدوية المفردة[16] الذي كان ضمن أكثر من مائة وخمسين مؤلفا اعتمده ابن البيطار في تأليف كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" [17] والذي يُعدُّ خلاصة الأبحاث السابقة، والتزاما بمنهج المشاهدة والمعاينة والتجربة[18].

وتبدو هذه الاستمرارية كذلك في التوجه إلى بناء البيمارستانات التي بقي بعضها قائما حتى القرن العاشر الهجري[19].

وفي مجال الرياضيات كان لبجاية حضور قوي إذ كانت مقصدا لطلبة العلم بفضل منهج مدرستها التي كونها علماء الرياضيات، وكان على رأسهم في القرن السابع محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور[20].

وتمكنت بجاية من إرساء قواعد علمية ساهمت في احتضان العلماء الذين كانت لهم اليد الطولى في التأليف. وإذا ما قدرنا حجم المجهود المبذول في تأليف كتاب واحد كالحاوي الذي يقع في ثمانية عشر مجلدا في اللغة من تأليف عبد الحق الأزدي الإشبيلي ببجاية أدركنا حجم النشاط العلمي الذي تميزت به هذه المدينة[21].

هذا المناخ العلمي المتميز كان وراء استقطاب بجاية لعدد موفور من العلماء من المدن الأندلسية والمغاربية، وامتد ذلك إلى القرن السابع الهجري. وقد قال العبدري في رحلته التي مر فيها ببجاية بأنها " بقية قواعد الإسلام، ومحل جلة من العلماء الأعلام"[22]. وفي عملية إحصائية لعلماء بجاية من كتاب عنوان الدراية الذي يعطينا لمحة صادقة عن الحياة العقلية للمدينة في القرن السابع الهجري ومن وجهة نظر الغبريني وتكوينه الفقهي وجدنا أن عدد الوافدين إلى بجاية يشكل **60%** من مجموع علمائها الذين بلغ عددهم **108** عالما[23]، وشكل الأندلسيون منهم أكثر من النصف بنسبة **34%** والباقي من مختلف المدن المغاربية ومن مدن المشرق كذلك وإن بنسبة قليلة. ولاشك أن ظروف الأندلس في هذا العصر كانت وراء هذه الهجرة إلى بجاية إلى جانب مناخها العلمي الذي ساهم بقوة في توجيه الرحلة والهجرة إليها.

ب- الأثر المنهجي لمدرسة ناصر الدين المشَدَّالي: لقد تأصلت وترسخت في بجاية مناهج علمية أصولية في الدراسات الشرعية، ومناهج نظرية وتجريبية في العلوم العقلية، غير أنه في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ظهرت شخصية بجائية غطت بظلالها على من سبق من الشخصيات العلمية، وكانت هذه الشخصية عنوان عبقرية بجاية التي ساهمت بها في سمعتها العلمية والمناهجية، إنه العالم البجائي المجتهد أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد الزواوي المشدالي الذي ولد سنة 631هـ/1233 (ت سنة 731هـ/1330م)، ورحل إلى المشرق وهو صبي، واستمرت دراسته في المشرق عشرين سنة، وتتلمذ على أيدي كبار علماء المشرق، مثل الفخر بن الخطيب الرازي، وتتلمذ مع القرافي[24] في مجالس واحدة، ورجع إلى بجاية بعلم وفير، وهو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الفرعي[25] إلى بجاية، ومنها انتشر في سائر أقطار المغرب[26]. وكان من جملة تلاميذه أبو اسحق إبراهيم بن يخلف بن عبد الجليل التنسي المطماطي نزيل تلمسان في عهد يغمراسن[27]. وقد جعل ابن خلدون ناصرَ الدين الحلقة الأساسية في سند التعليم ليس في بجاية فحسب بل في المغرب كله[28]، وخاصة تلمسان حيث يقول:" ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة[29] أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرا مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد، ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل إلى تلمسان"[30]. وقال عنه تلميذه منصور بن علي الزواوي نزيل تلمسان بأنه"ملأ بجاية وأقطارها بالعلوم النظرية والفهوم النقلية والعقلية"[31]. وقال عنه معاصره الغبريني"ومحبته في البحث أكثر من محبته في النقل"[32]. وقال عنه الشريف التلمساني بأنه رئيس البجائيين[33]. وكان له تلاميذ كثر تتلمذوا على يديه ببجاية من مختلف أصقاع المغارب[34].

إن شخصية ناصر الدين تميزت بنزعة علمية وعقلية تجديدية استحقت تنويه مختلف الشخصيات العلمية المعروفة، وقد علق العبدري صاحب الرحلة على ناصر الدين الذي التقى به في رحلته إلى بجاية بأن زاده في الحديث قليل، وأنه لا يميل إلى الحفظ[35]، ولم يكتشف العبدري منهج ناصر الدين الجديد الذي يعتمد البحث والمناظرة والنقد، أو كما يسميها ابن خلدون المفاوضة[36] مخالفا في ذلك ما استقر من عوائد تعليمية تتبنى الحفظ والنقل أساسا لتقييم العلم والعلماء، وتعتبر الخروج عنها منقصة علميه وتعليمية[37].

إن مدرسة بجاية تمكنت إذن في القرن السابع الهجري بعد أن صارت العاصمة الثانية للدولة الحفصية[38] أن تأخذ مكانتها من جديد، ولكن الوضع السياسي القائم لم يوفر لها ولا لعلمائها فرص الاستقرار، ولذلك ما إن أطل القرن الثامن حتى كانت هذه المدرسة تتوق للتحرر مما تعايشه من حصار للعلماء من قبل الدولة الحفصية التي تراخت عن حمايتها.

2- تلاميذ ناصر الدين المشدَّالي: لقد كان تلاميذ ناصر الدين المشدالي الذين انتقلوا إلى تلمسان أو الذين استمر عطاؤهم في بجاية جزءا من المشيخة الذين استفادت منهم تلمسان في التأسيس لمدرستها العلمية.

ومن الضروري التأكيد على أن العلاقة الجدلية بين الساسة والعلماء، أو بين السلطان والعرفان والتي برزت بشدة منذ عهد هارون الرشيد والمأمون في المشرق، ثم في الأندلس على عهد الناصر والمستنصر في مستوياتها العليا، واستمرت تلقي بظلالها وشرعيتها في بلاطات الحكم، إن على مستوى الدولة المرابطية أو الموحدية، قد بقي لها حضورها الكبير في الدول الثلاث التي ورثت الموحدين: الزيانية في تلمسان، والمرينية في فاس، والحفصية في تونس.

ففي الدولة الزيانية كان صاحبها يغمراسن بن زيان طموحا لأن يجعل من تلمسان حاضرة تضاهي المدن المغاربية كفاس ومراكش وتونس بجاية، ولذلك كان له اهتمام خاص باستقدام كل الكفاءات العلمية من مختلف المدن والأقطار، مثل: إبراهيم بن عبد الجليل التنسي[39]، وأبي داوود خطاب الأندلسي، وابن وضاح الأندلسي، وجدّ علي بن محمد الخزاعي الأندلسي صاحب كتاب تخريج الدلالات السمعية[40]، وغيرهم، وربما كانت هذه التوجهات الجديدة دافعة لشخصيات علمية بالانتقال والمكوث في تلمسان مثلما حدث للمؤرخ والمفتي المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي[41] صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة الذي توفي بتلمسان عام 703هـ/1303م. كما برزت تلمسان في هذه الفترة كقطب اقتصادي كبير حيث كانت التجارة في تلمسان نافقة بعد أن أصبحت تلمسان ملتقى الطرق التجارية بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب[42].

واستمرت هذه السيرة في خَلَفه السلاطين، ليطل علينا القرن الثامن حيث أصبحت فيه تلمسان تستقطب مختلف الطاقات، وصارت ملتقى لمختلف المناهج والكفاءات العلمية محلية، وأندلسية، ومشرقية، ومراكشية، وبجائية.

لقد كانت أهم مشيخة بجائية في تلمسان ممثلة في أبي موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي تلميذ ناصر الدين المشدالي وصهره على ابنته، الذي فرَّ من حصار بجاية إلى مدينة الجزائر، وعلِم به السلطان الزياني أبو تاشفين (718-737هـ/1318-1336م) فاستدعاه وقربه منه، وأحسن إليه، واستخلصه إلى مدينة تلمسان، وجعله مدرسا ومشرفا على المدرسة الجديدة (التاشفينية)[43]، مقابل مدرسة ابني الإمام التي بناها لهما السلطان الزياني أبو حمو الأول، ودرَّس بها كما قال تلميذه المقري الجد" الحديث والفقه والأصلين والفرائض والمنطق والجدل"[44]. وكان عمران من كبار العلماء حتى قال عنه صاحب البغية يحيى بن خلدون"لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك، وحفظا لأقوال أصحابه، وعرفانا بنوازل الأحكام، وصوابا في الفتوى"[45]؛ وجعله أخوه ابن خلدون عبد الرحمن حلقة الوصل في سند التعليم بين بجاية وتلمسان، حيث قال في معرض حديثه عن ناصر الدين في بجاية: "واتصل سند تعليمه في طلبتها، وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشدالي تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها، وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل، وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم"[46]. واستمر في الإقراء إلى وفاته سنة(742هـ/1341م)، وبعد ذلك انتصب للتدريس في هذه المدرسة أخوه أحمد بن موسى المشدالي الذي كان رديفه بتلمسان[47].

كذلك استضافت تلمسان العالم البجائي الكبير أبا العباس أحمد بن عمران من تلاميذ ناصر الدين الذي جاءها تاجرا[48] وأصبح من علمائها، وقد ترجم له يحيى بن خلدون في بغيته[49].

ولا يمكننا أن نغفل الجهد الكبير للعالم البجائي منصور بن علي المشدالي (كان حيا سنة 770هـ/1368م) تلميذ ناصر الدين، ونزيل تلمسان، وقد تصدر للإقراء بغرناطة وتلمسان، وتتلمذ عليه كثير ممن صار بعد ذلك من كبار العلماء، أمثال أبي إسحاق الشاطبي[50]، وابني خلدون[51] وغيرهم.

3- رحلات التلمسانيين إلى بجاية: ومن جانب آخر وبالإضافة إلى ذلك كان الطلبة التلمسانيون في هذه الفترة (700-750هـ/1300-1349م) يتواصلون إلى بجاية للدرس وأخذ العلم عن علمائها، ولعل أهم شخصية تلمسانية نهلت من بجاية وعلمائها: أبو عبد الله المقري الجد[52]الذي تتلمذ في صغره على أبي موسى عمران المشدالي في تلمسان، ثم رحل إلى بجاية

ودرس على جملة من علمائها منهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي ابن المسفِّر(ت743ه/1342م)، والقاضي أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي، وإمام المعقولات بعد ناصر الدين العالم أبوعلي حسن بن حسن[53]، ثم رجع وأصبح هو الآخر من كبار علماء تلمسان الذين يشار إليهم بالبنان، ولعله كان ضمن من أسسوا ومكنوا للمدرسة العلمية التلمسانية.

لقد تميزت مساهمة مشيخة بجاية في نقل المناهج البجائية الأصولية والبحثية والعقلية إلى تلمسان، وكان لذلك أثره الكبير في تكوين ثلة من التلاميذ كان على عاتقهم التأسيس للمدرسة التلمسانية التي ظهرت بها آثار هذه المشيخة في قواعد المقري الجد، ومفتاح الوصول لأبي عبد الله الشريف التلمساني(ت 771ه/1369م) وغيرهما، كما ظهرت كذلك في تلك الروح العلمية البحثية التي باتت المنهج المتبع في إدارة المجالس العلمية[54].

الدور الثاني: مرحلة التنافس العلمي: يمكننا أن نحدد لهذا الدور مجالا زمنيا يمتد في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/14م. فبعد أن تأسست المدرسة العلمية التلمسانية، احتوت تلمسان- بالإضافة إلى النشاط الدائم للمساجد- خمس مدارس كانت وراء التكوين العلمي المتميز بشقية النقلي والعقلي[55]. ونظرا لهذا التطور الكبير في المرافق العلمية وشيوع التعليم في كل مستوياته أصبحت تلمسان تسير نحو الريادة العلمية بفضل جيل من العلماء الذين أصبحوا شيوخا، وطبعت مناهجُهم تلاميذَهم ومن جاء بعدهم.

وهنا نلمح تطورا بدأ يلوح ويظهر بين مدرسة تلمسان الناشئة ومدرسة بجاية. لقد رصدت في بداية الأمر (النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ق14م) ملامح من الروح التنافسية الشريفة بين علماء بجاية وتلمسان، ظهرت في تلك المناقشات التي كانت تدار بتلمسان في بلاط أبي تاشفين السلطان الزياني (718-737هـ/1318- 1336م) بين الفقيه عمران المشدالي والفقيه أبي زيد ابن الإمام[56]، وكذلك في مدينة فاس بين الفقيه محمد بن يحيى الباهلي ابن المسفر والعالم الكبير الآبلي[57]، وتمثل هذه المناقشات في عمقها تنافسا نحو إبراز القدرات المنهجية للمدرستين البجائية والتلمسانية. غير أنها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري تطورت إلى بروزٍ للمشيخة التلمسانية بعد أن شعرت تلمسان بأنه يمكنها بمناهجها أن تتجاوز المشيخة البجائية، وأن تكون مستقلة الرأي والتفكير، بل والريادة فيهما.

من جانب آخر وفي هذه الأثناء شعرت بجاية بأن مركز الريادة العلمية أو المشيخة قد تزحزح من علمائها[58]، لذلك كانت هناك مناقشات بين ثلة من كبار علماء تلمسان وبعض علماء بجاية حول مسائل فرعية، ولكننا نستشف في صلب الأجوبة تلك الروح التي تود التذكير بالمشيخة البجائية لعلماء تلمسان، ونفي الاجتهاد عن علماء تلمسان؛ وقد سجل الونشريسي في معياره جانبا من هذه المناقشة التي حدثت بين أبي القاسم الغبريني- نجل أبي العباس الغبريني صاحب عنوان الدراية- الذي كان قاضيا للحضرة الحفصية في تونس وكبير المفتين فيها الذي رد بقسوة على كل من المقري الجد (ت759هـ/1357م) والشريف التلمساني (ت 771هـ/1369م) حول مسألة التراجع على الوصية بعد أن يشترط صاحبها عدم التراجع، وكانت هذه الفتوى بين 750و759هـ/1349و1357م. ورد الغبريني يبدو أنه كان بين سنة 765-770هـ/1363-1368م، ولما ورد ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م) على تونس في هذه الفترة قبل انتقاله إلى مصر قام بالرد على فتوى الغبريني دفاعا كما قال عن أبوي عبد الله، ثم لما علم بذلك الشريف التلمساني رد هو الآخر على كل من الغبريني وابن مرزوق بجواب مطول.

والمناقشات كلها أثْرَت الدراسات الفقهية والأصولية، وتنوعت فيها طرق الاستدلال والنقاش، وأفادت الحركة العلمية في تنوع المناهج والرؤى والفكر بحوالي مائة صفحة بين جواب ورد وتعقيب في مسألة فرعية واحدة[59].

لم تقتصر في الواقع هذه المناقشات على هذه المسألة، وإن كانت هذه الفتوى واضحة الدلالة على وجود حساسية بين العلماء في حاضرتي بجاية وتلمسان، بيد أن مسألة أخرى حتى وإن بدأت مناقشاتها في عشرينيات القرن الثامن سنة 727هـ/1326م، إلا أن التلمسانيين دخلوا في صلب النقاش في النصف الثاني من القرن الثامن/ق14م بعد أن توطدت أركان المدرسة التلمسانية كما سلف الذكر، وهذه المسأله تعلقت بقضية الشرف من قبل الأم، التي كانت محل جدل بين البجائيين والتونسيين في بداية الأمر، إذ كان القاضي أبو إسحاق ابن عبد الرفيع التونسي يرى أن الشرف لا يثبت من جهة الأم؛ ومن جهة أخرى كان رئيس البجائيين ناصر الدين المشدالي يرى أن الشرف يثبت من جهة الأم[60]؛ بينما دخل التلمسانيون في هذا النقاش في النصف الثاني من القرن الثامن في سنة 770هـ، وقد مثل ذلك كل من الشريف

التلمساني، وابنيه عبد الله وأبي يحيى، وسعيد بن محمد العقباني، وقاسم بن سعيد العقباني، وعلي بن محمد بن منصور الأشهب، وكلهم يرى ثبوت الشرف من قبل الأم بالطريقة التلمسانية التي تفرق بين النسب والفضيلة كما جاء في فتوى الشريف التلمساني[61]؛ وبقيت هذه المناقشة حتى عصر ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ) الذي كتب رسالة كاملة حول إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم وذلك سنة 818هـ[62]. وبقيت فتاوى الشرف تلقي بظلالها في الثقافة والسياسة إلى أواخر الدولة الزيانية، فقد حاول التنسي (ت 899هـ) أن يثبت شرف نسب الزيانيين ضمن كتابه الذي أهداه إلى السلطان الزياني تحت عنوان "نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان"[63].

وفي هذ المرحلة نلحظ اهتماما واسعا من بجاية بالعلماء التلمسانيين، فعند استدعاء الآبلي وهو بتونس من قبل السلطان المريني أبي عنان، وعند مروره ببجاية توقف للتدريس بها مدة شهر كامل- كأستاذ زائر- بطلب من علمائها. ورحل أبو العباس أحمد بن موسى البجائي إلى تلمسان للقراءة على عبد الله بن محمد الشريف التلمساني (792هـ/1389م) (ابن الشريف التلمساني المشهور)[64]، الذي كان يدرس بالجامع الأعظم بتلمسان، وكان يحضره إلى جانب ذلك الطلبة الفاسيين، وكان من شأنهم حفظ المسائل والنقل على عادتهم[65]. كما ولي القضاء ببجاية العالم التلمساني سعيد بن محمد العقباني[66](ت811هـ/1408م).

هذه المرحلة إذن هي مرحلة بدأت فيها تلمسان تأخذ الريادة ليس في المغرب الأوسط فحسب، بل وفي المغرب الإسلامي كله. نرى ذلك من خلال عبارات الإعجاب والإطراء بالعلماء التلمسانيين من قبل جهابذة العلماء، فقد كان لسان الدين بن الخطيب يراسل الشريف التلمساني ويطلب منه تقديمه لمؤلفاته الجديدة[67]. كما كان سعيد بن لب العالم الأندلسي الشهير كلما أشكلت عليه مسألة راسله فيها وطلب رأيه[68]. وقال ابن عرفة لما توفي الشريف التلمساني:" لقد ماتت بموته العلوم العقلية[69].

الدور الثالث: المشيخة التلمسانية: منذ مطلع القرن التاسع الهجري صارت تلمسان بمدارسها وشيوخها وعلومها موئلا للبجائيين يرحلون إليها للعلم والاستزادة من العلوم والتفاعل مع علمائها، ومناهجها.

وقد اتصلت سلسلة سند التعليم بتلمسان في تلاميذ ابن الإمام، ونجب من طلبته كما يقول المقري (الحفيد) نقلا عن ابن خلدون:" تلميذه أبو عبد الله الشريف (التلمساني) شارح الجمل، وانتهت طريقته لولده أبي يحي[70] المفسر العالم، واستقرت أيضا طريقة ابن الإمام في تلميذه سعيد بن محمد العقباني(ت 811هـ)، وانتهى ذلك إلى ولده شيخنا أبي الفضل قاسم العقباني رحمهم الله جميعا "[71].

والظاهر أن المعيار المُتّبع في إضفاء طابع التعليم الحسن واتصال سنده، إنما كان يُنظر فيه إلى المدى الكبير الذي يصله العالم من حيث سعة المعرفة، والتعمّق فيها، والبحث والمفاوضة كما يقول ابن خلدون، وإلى مدى ما يتركه من آثار في تكوين العلماء، أو التآليف البديعة، وهذه الحقيقة هي التي أشار إليها ابن خلدون ونقلها المقري الحفيد على لسانه بقوله:"ولمن ذكرنا من أهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم وملكة التلقي، يعني بذلك الشريف والعقباني رحمهما الله، قال: لكونهما ألّفا التصانيف البعيدة، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع"[72].

ويبدو أن تلمسان في هذا القرن أصبحت مركزا من المراكز الحضارية الإسلامية التي لا تضاهى، فقد كانت الرحلة إليها من قبل الأندلسيين والمغاربة وحتى بعض المشارقة، كالرحالة عبد الباسط الذي جاء ليتتلمذ بها الطب وغيره من العلوم[73]. كما رحل إليها القلصادي الأندلسي واستقر بها مدة ثمانية أعوام[74]، عاين فيها النشاط العلمي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة، وسجل ذلك في رحلته بقوله: "وأدركت فيها كثيرا من العلماء، والصلحاء، والعُبَّاد، والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرقة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقبة، فأخذت فيها بالاشتغال على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة واللسان"[75]، وفي هذا السياق ذكر القلصادي في رحلته مجموعة من هؤلاء العلماء[76].

وكان الطلبة البجائيون يترصدون حركة العلماء التلمسانيين الذين طار صيتهم للأخذ عليهم، ومن أمثلة ذلك إبراهيم بن فايد بن موسى بن هلال الزواوي الذي دخل قسنطينة وتتلمذ فيها عن علمائها وعن ابن مرزوق الحفيد الذي حل بها ودرَّس بمعاهدها مدة ثمانية أشهر[77].

ورغم بقاء المناهج الأصولية البحتة مترسخة في الثقافة البجائية، إلا أن ذلك لم يكن مانعا من أن يتوجه طلبة بجاية إلى الحاضرة المشعة للنهل من علومها؛ ولعل أوضح شخصية معبرة عن التلاقح العلمي البجائي في تلمسان في هذه المرحلة هي شخصية أبي الفضل المشدالي الذي جاء خصيصا إلى تلمسان للتتلمذ على علمائها، وكانت له الفرصة للدراسة على يد عشرة من علمائها في مختلف العلوم النقلية والعقلية. فقد تحدث السخاوي عن رحلة أبي الفضل المشدالي إلى تلمسان طلبا للعلم، وصوّر فيها ما تميزت به من علوم، وما حفلت به من علماء، فقال:" ثم رحل في أول سنة أربعين (وثمانمائة) إلى تلمسان، فبحث على محمد بن مرزوق ابن حفيد العالم الشهير، وأبي القاسم بن سعيد العقباني، وأبي الفضل بن الإمام[78]، وأبي العباس أحمد بن زاغو، وأبي عبد الله محمد بن النجار المعروف لشدة معرفته بالقياس بساطور القياس، وأبي الربيع سليمان البوزيدي، وأبي يعقوب يوسف بن إسماعيل، وأبي الحسن علي بن قاسم، وأبي عبد الله محمد البوري، وابن افشوش، فعلى الأول: في التفسير، والحديث، والفقه، والأصلين، والأدب بأنواعه، والمنطق، والجدل، والفلسفيات، والطب، والهندسة، وعلى الثاني: الفقه، وأصول الدين، وعلى الثالث: التفسير، والحديث، والطب، والعلوم القديمة، والتصوف، وعلى الرابع: التفسير، والفقه، والمعاني، والبيان، والحساب، والفرائض، والهندسة، والتصوف، وعلى الخامس: في أصول الفقه، والمعاني، والبيان،[...]وعلى السادس: في الفقه،[...]وعلى السابع: الحساب، والفرائض، وعلى الثامن: في الحساب، والجبر والمقابلة، وغيرهما من أنواعه، والهيئة، وجرّ الأثقال، وعلى التاسع: في التقاويم، والميقات بأنواعه، من فنون الإسطرلابات، والصفائح، والجيوب، والهيئة، والأرتماطيقي، والموسيقا، والطلسمات، وما شاكلها، وعلم المرايا والمناظر، وعلم الأوفاق، وعلى العاشر: في الطب؛ ثم عاد إلى بجاية في سنة أربع وأربعين (وثمانمائة) وقد برع في العلوم واتسعت معارفه"[79].

خاتمة: لقد كانت بجاية وتلمسان مدينتين منفتحتين على العلوم النقلية والعقلية بوعي كامل، واستطاعتا أن تكوِّنا وشائج علمية متميزة بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فلم تنقطع حلقات التواصل العلمي أخذا وعطاء بين المدينتين إلا بعد أن استفحل الصراع الداخلي الذي كان من أهم الأسباب للاحتلال الخارجي الإسباني. فكما اشتركت المدينتان في صناعة التاريخ العلمي للجزائر. اشتركتا كذلك في دعوة الأخوة بربروس اللذين دافعا عن مدينة بجاية

وتلمسان فقد بتر ذراع عروج في الدفاع عن بجاية ثم قتل دفاعا عن تلمسان، لتبقى المدينتان عنوانا على التواصل العلمي والجهادي.

الهوامش:

1- معظم الرحالة الذين زاروا بلاد الغرب الاسلامي مروا بتلمسان وبجاية، مثل: ابن الفكون القسنطيني، العبدري، ابن بطوطة، ابن رشيد، خالد بن عيسى البلوي، عبد الباسط بن خليل، وغيرهم.

2- لقَّح: يلقح تلقيحا فهو ملقح. لقح النخلة: وضع طلع الذكر فيها. لقحه: وضع في جسمه اللقاح المضاد للأمراض لإكسابه المناعة والقدرة على المقاومة. لقاح: مادة جرثومية مخففة القوة توضع في جسم الإنسان أو الحيوان لإكسابه المناعة والقدرة على مقاومة الأمراض – لقاح الشلل – لقاح الجدري. لِقاح: ماء الفحل من الخيل والجمال وغيرها. ألقحت الريح السحابة: خالطتها ببرودتها فأمطرت فهي ملقحة ولاقح. وفي القرآن الكريم﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾. ويقال: ألقحت الريح الشجر والنبات: نقلت اللِّقاح من عضو التذكير إلى عضو التأنيث. انظر: المعجم الوسيط، دون بيانات، مادة لقح. وللاستزادة انظر، ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 1423ه/2003م، ج8، ص106-110، مادة لقح. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1425ه/2005م، ص224. .

3-ابن خلدون: العبر وديوان المبتدإ والخبر، ج 6 ص 206-.207

4- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، لبنان،ط1، 1409ه/1989م، ج1ص 260. وانظر كذلك في نفس المعنى، مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، بلا تاريخ، ص128-.131

5-انظر ترجمته في، التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1409،1هـ/1989م، ص.155

6- الغبريني أب العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1969م، ص .36

7-نفسه، ص .55

8- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ص .534

9-الغبريني: م.س، ص 206. وفي فترة لاحقة في العصر الحفصي استدعي الطبيب ابن أندراس إلى بلاط الأمير الحفصي المستنصر ليكون ضمن خواص أطبائه بعد أن كان رئيس مصلحة الطب لدى ولاة بجاية . الغبريني: م.س، ص 76

10- الغبريني: م.س، ص .55

11-ابن أبي أصيبعة: م.س، ص 538. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003/1424م، ج 1، ص 83- 88. ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1383ه/1964م، ج 1، ص107. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1419ه/1998م، ج3، ص 197- 198. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ، ج5، ص184. تجول ابن الرومية في مصر والشام والعراق والحجاز ودرس الكثير من أصناف النباتات غير المعروفة وصار لا يجارى في علم النبات والأعشاب وصنف في النبات شرحا وتصحيحا.

12- ابن أبي أصيبعة: م.س، ص .538

13- ابن الخطيب لسان الدين: م.س، ج1، ص .85

14- انظر ترجمة ابن البيطار في، ابن أبي أصيبعة: م.س، ص 601. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1424ه/2003م، ج13، ص345. الحنبلي: م.س، ج5، ص234.

15- ابن أبي أصيبعة: م.س، ص 601. عبد الله بن أحمد ضياء الدين أبو محمد ابن البيطار (تلميذ ابن الرومية)الذي طار ذكره في المشرق والمغرب على السواء، وصارت مؤلفاته أهم المراجع في علم النبات، وكان هو الآخر على شاكلة أستاذه بحثا عن الفضائل النباتية دارسا لخصائصها، طاف أرجاء المغرب ثم قصد مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وألف في ذلك كتابين: كتاب "الجامع في الأدوية المفردة"، وكتاب"المغني في الأدوية المفردة"، وكان من تلاميذه ابن أبي أصيبعة، وتوفي بدمشق سنة 646ه.

16- ابن أبي أصيبعة: م.س، ص 501.

17- المقري: نفح الطيب، ج3، ص 276-277، و ج4، ص 26، 179- 180. إبراهيم بن مراد: بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1411ه/1991م، ص 40-41.

18- جلال محمد عبد الحميد موسى: منهج البحث العلمي عند العرب، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط1، 1392ه/1972م، ص 242-243.

19- الحسن الوزان: وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403ه/1983م، ج2، ص 50.

20- الغبريني: م.س، ص 57. حركات: مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 ه/ 15م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1421ه/2000م، ج1، ص430.

21- الغبريني: م.س، ص 43 تحدث عن عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي الذي رحل إلى بجاية واستوطن بها وألف بها تآليفه الكبيرة منها كتاب في اللغة سماه "الحاوي" في 18 مجلدا.

22- العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق، أحمد بن جدو،بلا تاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ص 24.

23- يصرح الغبريني أنه وضع في كتابه ثلاثة من كبار المشايخ ينتمون إلى القرن 6 هـ، ولكن أثرهم استمر في القرن السابع الهجري.

24-القرافي البربري صنهاجي: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، من فطاحل العلماء المؤلفين، صاحب كتاب الفروق والقواعد، ولد ودرس وتوفي بمصر سنة ـ684هـ/1283م، انظر ترجمته في، ترجمته في، ابن فرحون: الديباجالمذهب، تحقيق، مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1، 1417ه/ 1996م، ، ص 128. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ج1، ص 273. مخلوف: م س، ص 188. الزركلي خير الدين: الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15،1423/ 2002م ج1، ص93.

25- ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر الدوني ثم المصري، الفقيه الأصولي المالكي، كان والده حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي، له كتاب" منتهى السؤل والأمل، في علم الأصول والجدل"، ومختصره، وهو المشهور المتداول بمختصر المنتهى أو المختصر الأصلي، وله مختصر في الفقه يعرف بالمختصر الفرعي، توفي بالأسكندرية سنة 646هـ/1248م، انظر ترجمته في، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص 248. مخلوف: م س، ص 167. حاجي خليفة: كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط431ه/2010م، ج2 ، ص684.

26- مخلوف: م.س، ص 217.

27- مخلوف: م.س، ص 218.

28- كان إبراهيم بن محمد بن ابراهيم بن ابي القاسم القيسي السفاقسي المالكي(ولد سنة 697هـ وتوفي سنة 742هـ) ممن تتلمذ على ناصر الدين في بجاية. انظر ابن حجر(ت 852هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418ه/1997م، ج1، ص38.

29-الحقيقة أواسط القرن السابع.

30- ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413ه/1992م، ص

31- ابن الخطيب: م.س، ج3 ص 248. التنبكتي: م.س، ص 609.

32- الغبريني: م.س، ص 229.

33- الونشريسي أحمد بن يحيى: المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م، ج 12ص211.

34- ثمة شخصيات علمية بجائية في هذا القرن السابع رحلت إلى المشرق وكان لها حضور علمي لافت رغم المزاحمة والمنافسة بين الكفاءات، من بين هؤلاء محمد بن سليمان بن سومر البربري الزواوي جمال الدين المالكي الفقيه القاضي الذي ولد في حدود سنة 630هـ، وقدم الاسكندرية فاشتغل بالفقه ... وناب في الحكم بالقاهرة وبالشرقية والغربية، وعين لقضاء القاهرة بعد وفاة القاضي ابن شاس. وولي قضاء دمشق سنة 687هـ واستمر ثلاثين سنة، وعزل قبل موته بأيام في جمادى الآخرة سنة 719هـ. انظر ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 413. ابن حجر العسقلاني: م س، ج3، ص 272-273. كذلك شخصية أخرى ممثلة في : أبو الروح عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي الفقيه الامام الذي تفقه ببجاية وقدم الاسكندرية وتفقه بها، ودرس بمصر وحصل به النفع، وانتهت إليه رئاسة الفتوى هناك، وتولى القضاء بنابلس ثم بدمشق، وناب عن قاضي القضاة

بمصر، شرح صحيح مسلم في 12 مجلدا سماه"إكمال الإكمال"، وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي بلغ فيه الصيد في 7سبع مجلدات، وله تاريخ في نحو 12 اثني عشر مجلدا ولد في 664ه وتوفي في 743هـ. راجع مخلوف: م س، ص 219.

35- العبدري: م.س، ص 131.

36- المقدمة، ص462، جاء فيه عن طلبة فاس: "فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتا لا ينطقون، ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في الفهم والتعليم".

37- جاء في مقالة الفرد بل:" ورد الفعل ضد النزعة العقلية البعيدة عن مشاعر البربر وتصوراتهم قد أخذت -كما فعل ايضا في الشرق- ازدهار التصوف منذ القرن الثاني عشر الميلادي في الغرب الإسلامي". انظر، الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي 1404ه/ 1984، ص 312.

إن في هذه الحركية العقلية التجديدية ببجاية التي قادها ناصر الدين وكانت آثارها كبيرة في المدن المغاربية وحتى المشرقية ما يرُدُّ بقوة على المستشرق الفرنسي الفرد بل الذي اتهم البربر بكل صلافة بالبعد عن النزعة العقلية في إطار الحملة الاستعمارية التي ساهم فيها المثقفون الفرنسيون بشكل أساسي، وكانت تستهدف استلال الجزائر من محيطها الحضاري العربي الإسلامي، من خلال ادعاء ثلاث مغالطات لتبرير الاحتلال ومن ورائه كل الجرائم الإنسانية والحضارية التي اقترفتها فرنسا في حق الأمة الجزائرية، وهي، أولا: التفوق العرقي والأخلاقي الفرنسي!!. ثانيا: التفويض الإلهي بتنصير أراض مسيحية!!. ثالثا: تحضير أو تمدين البرابرة المتوحشين. انظر، أجرون شارل روبير: المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، ترجمة محمد العربي ولد خليفة، ثالة للطباعة، الجزائر،1425ه/ 2004م، ص 9-10 من مقدمة المترجم.

38- الفرد بل: م س، ص 300.

39- كان أبو إسحاق عالما كبيرا ألف شرحا في عشر مجلدات على رسالة في الفقه المالكي لأبي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي" تلقين المبتدي وتذكرة المنتهي" ضاع في حصار تلمسان. راجع، ابن مريم: البستان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1406ه/ 1986م، ص 66.

40- انظر، علي بن محمد الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ط1، 1405هـ/ 1985م، ص 7 من مقدمة المحقق.

41- ابن فرحون: م س، ص 415-416.

42- كان لأهل المقري الجد في تلمسان شركة تجارية استطاعت ان تركز نشاطاتها في ثلاث مناطق اساسية محورية في التجارة بين الشمال والجنوب، وهذه المدن هي: تلمسان، وسجلماسة، وايولاتن،. ابن الخطيب: م.س، ج2 ص 117 . المقري: نفح الطيب، ج6، ص 173.

43- التنسي محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق ، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزء الأول، 1405هـ/1985م، ص 141. المقري: م س، ج5 ص 223.

44- التنبكتي: م.س، ص 350.

45- يحيى بن خلدون أبو زكريا: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد يحيى بن خلدون، تقديم وتحقيق وتعليق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ/1980م، ج1 ص 131.

46- ابن خلدون: المقدمة، ص 462.

47- يحيى بن خلدون: م.س، ص 131.

48- التنسي: م س، ص 142.

49- سماه أبو العباس احمد بن عمران اليانوي، شرح ابن الحاجب في ثلاثة أسفار، التنبكتي: م س، ص 94.

50- التنبكتي: م.س، ص 611..

51-جعله يحيى ابن خلدون خاتمة تراجمه من كتاب البغية.

52- ابن مريم: م.س، ص 174.

53- ابن مريم: م.س، ص 174.

54- ابن مريم: م.س، ص 174.

55- عن هذه المدارس الزيانية انظر، قريان عبد الجليل: التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ/ 2011م، ص110-126.

56- الونشريسي: م.س، ج6 ص 361-.362

57- ابن الخطيب: م.س، ج2 ص 124. ابن مريم: م.س، ص 216.

58- انظر مثلا عن منصور بن علي المشدالي الذي رحل إلى تلمسان واستوطن بها، ونقل عنه ابن الخطيب لسان الدين الذي طلب منه تقييد مشيخته، وتتلمذ على يد أبي ناصر الدين المشدالي في آخر أيامه سنة 727ه/1326م، قال المشدالي:" ثم ثنيت العنان إلى تلمسان راغبا في علوم العربية والفهوم الهندسية والحسابية"،الاحاطة ج3، ص328، وكان حيا سنة 770ه/1368م، وهو الذي جعله يحيى بن خلدون خاتمة تراجمه في البغية، ج1 ص 132.

59- الونشريسي: م.س، ج9ص 268-354. فتوى الشريف التلمساني صفحة واحدة 269. فتوى المقري صفحة واحدة 270. تعقيب الغبريني10 صفحات من ص 270 إلى ص279. رد ابن مرزوق 41 صفحة من ص279 إلى ص 320. تعقيب الشريف التلمساني 53 صفحة من ص321 إلى ص354

60- انظر نص الفتوى التي رد فيها ناصر الدين المشدالي بواسطة تلميذه ابي علي الحسن بن حسين البجائي، على ابن عبد الرفيع في المعيار ج12، ص 385-394، وهو ما ختم به الونشريسي معياره

61- الونشريسي: م.س، ج 12 ص 193-207.

62- الونشريسي: م.س، ج12، ص 193-207.

63- التنسي محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق ، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزء الأول ، 1405هـ/1985م.

64- ابن مريم: م.س، ص 119.

65- نفسه، ص 117.

66- سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني، من كبار علمائها وقضاتها، توفي بها سنة 811هـ/1408م، انظر ترجمته في، التنبكتي: م.س، ص189. ابن مريم: م.س، ص 106. مخلوف: م.س، ص 250. الحفناوي: التعريف، ج1 ص90. نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 75. الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ص 163.

67- ابن مريم: م س، ص 175. المقري: م س، ج6، ص 25.

68- نفس المصادر والمكان، وانظر كذلك، التنبكتي: م س، ص 438. الجيلالي: م س، ج2، ص208.

69- التنبكتي: م س، ص 435. ابن مريم: م س، ص 170.

70- أبو يَحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني، من كبار العلماء، توفي سنة 826هـ/1422م، انظر ترجمته في:، التنبكتي:م س، ص 252. مخلوف: م س، ص 251.

71 المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطها وحققها وعلق عليها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1400هـ/1980م، ج3، ص 24 .

72نفسه، ج3، ص 24 .

73 زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف1365هـ/ 1945م، ص 175.

74 من عام 840هـ/1436م إلى عام 848هـ/1444م، انظر، القَلَصَادي أبو الحسن علي بن محمد البسطي: رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1398هـ/ 1978م.م.س، ص 94، 110 .

75 نفسه، ص 95..

76 نفسه، ص 96-109 ، حيث ذكر أحد عشرة عاما.

77 التنبكتي: م س، ص56-57.

78 التنبكتي: م.س، ص 541.

79 السخاوي محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بلا تاريخ، ج9، ص 181-182.

RESUME: The scientific exchange between the cities of Bejaia and Telemcen in the Middle Ages. (a historical reading)

The scientific communication between the different Maghrebi cities emerged as a vital historic phenomenon. This scientific contact enabled the nation to exchange various sciences, despite the gloomy political atmosphere that prevailed at that time. The communicative experience between Bejaia and Telemcen can be cited as one of the most significant experiences that paved the way to found outstanding, scientifically competing bases. This experience had a huge impact at the level of all sciences, be them "copied" or "genuine" in the Maghreb.

This article examinates the refined interaction between the two cities, and unveils its results.